العدد (2180) السنة الثامنة - الأثنين (4) تموز 2011 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

على هامش الصراحة

قاعدة معلومات الفساد

■ إحسان شمران الياسري

لا أحد يعرف (البركة في أي حبّة) كما يقول المثل العراقي، ولا تستطيع أن تتنبأ بالناس إلا عندما ترى أعمالهم أو آثارهم.

ولست هنا لأضع عمامة على رأسي وأعظ الناس، فأنا لست واعظاً، واحتاج لمن يعظني من أخمس قدمي حتى هامتي. ولكن لا أحد منا يعرف أين البركة وفي أية حبّة.. وليس منا من يُحسن التخمين.

يأتيك الرجل الورع التقي الذي يتناثر النور من كل جانب منه، ويُحدّثك عن الحياة وزوالها وما أكثر العِبَر وما أقل المعتبرين.. فتنام من التنويم المغناطيسي الذي يفعله بك المؤمن الذي ينوي التعامل معك (تحقيقاً للمصلحة العامة، وخدمة لهذا الشعب الذي سحقته الأنظمة الدكتاتورية وقلة المروّة بين الناس!!).

وهكذا توّقع معه العقد أو تأتمنه على مالك أو مال المؤسسة التي تديرها، ثم تأمر بمنحة نسبة الـ (٢٠٪) من العقد التي قررتها التعليمات المقتضية لتنفيذ العقود.. فتُصبح وإذا بالأخ المؤمن صاحب الكرامات العريضة في لَبنان أو الأردن أو السويد أو إيران، وأنت حائر ماذا تفعل.

وبالمقابل، قد يأتيك شخص فيه شيء حقيقي مما ادعاه صاحبنا الذي نصب عليك، ولكنك لن تأتمن بعد اليوم أخاك ولا أباك ولا صاحبتك وبنيك. وأنت بعد اليوم لن تفعل كما فعلت، وستلجأ للتعقيد وافتعال المطالب والشروط عسى أن يملّ المقاول وينسحب (وتخلص من المشاكل).

إن النصب على مؤسسات الدولة والحكومات المحلية صار مهنة يحترفها نصّابون لديهم مقومات النصب التي تبدأ بمسؤول فاسد يُمهد لهم الطريق، وقد يكون شريكهم بالسر أو العلن، ووجاهة زائفة، ومظهر مقبول، مع شيء من التقوى الزائفة وعدد من (المحابس)..

فإذا كان لابد من عمل شيء لهذه الدولة، فهو أن نؤسس قاعدة معلومات نوثّق فيها الفساد، والفاسدين، أفراداً ومؤسسات وشركات. ونوثق أيضاً، رغم صعوبة ذلك، المسؤولين الذين يتوسطون للفاسدين، فيتدخلون ويتشفعون لمقاول فاشل ولآخر فاسد، فتُحيل المؤسسات مقاولة بناء جسر أو مستشفى لقصّاب أو لبائع شاري ملابس عتيقة على الرصيف، وتعلن هيئات الاستثمار في المحافظات إنها أحالت مقاولة بكذا مليار دينار إلى مقاول، ثم نكتشف إنها أحالت بضغط من نائب أو سياسي إلى شخص لا علاقة له بالمقاولات ولم يمتهنها أصلاً.

أما عندما تتوفر قاعدة المعلومات، لن تنخدع مؤسسة، ولن تدفع ثمن الجهل بفاسد.. فالاسم (الرنان)، الموشى بالفضائل و(المحابس) يمكن أن يخدع أشطر الناس، فإن خدع أحد العباد وإحدى المؤسسات، علينا أن نحمي الآخرين..

الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

الـتـوافـقـات الـسـيـاسـيـة ونـهـايـة الـنـفـق

محمد صادق جراد

بات الجميع يدرك بان التوافق السياسي في العراق أصبح يزيد من اتساع المسافة بينه وبين نظام مؤسسات الدولة حيث أصبحت نتائج التوافق تتعارض مع بناء المؤسسة الدستورية وأصبحنا مع كل مبادرة جديدة للتوافق بين القوى المتناحرة نزداد بعدا عن دولة المؤسسات والمفاهيم الديمقراطية الجديدة ونزداد ترسيخا لمفاهيم المحاصصة الطائفية والصراعات السياسية على السلطة.

وفي الوقت الذي نشهد فيه وصول التوافقات السياسية إلى طريق مسدود وفي ظل تصاعد وتيرة الخلافات التي تعكسها التصريحات للأطراف المتناحرة تطفو على السطح بعض الحلول المقترحة من قبل هذه الأطراف حيث يقترح كل طرف حلا للازمة يتناسب مع رصيده وإمكاناته المتاحة والتي تمكنه حسب اعتقاده من البقاء في مواقع مهمة ضمن العملية السياسية.

وهكذا تردد كثيرا مقترح حكومة الأغلبية السياسية من قبل التحالف الوطني وبالمقابل نسمع تصريحات بضرورة إجراء انتخابات مبكرة من قبل القائمة العراقية ويعتقد الطرفان بان هذه المقترحات ستساعدنا على الخروج من النفق المظلم الذي وصلت إليه العملية السياسية التوافقية في العراق وإنها ستعمل على التخلص من المحاصصة التي لازمت التجربة العراقية منذ انطلاقها حيث جاء نظام المحاصصة حسب نظر البعض في حينه من اجل ملء الفراغ السياسي بعد سقوط النظام الشمولي في ٢٠٠٣ لعبور مرحلة خطيرة لم تكن فيها الأحزاب المتواجدة في الساحة قادرة على إدارة دفة البلاد لحداثة تجربتها وضعف الترابط بينها وبين المجتمع إضافة إلى غياب البرنامج الوطني المتكامل الذي يستطيع أن يبني الدولة .

لذلك كان الرأي حينها يتجه صوب تحريك المجتمع السياسي والخبرات السياسية داخل المكونات التاريخية في المجتمع العراقي من خلال إشراكها في السلطة في محاولة لدفعها إلى النضج باتجاه استيعاب المفاهيم الديمقراطية الجديدة والخوض في الممارسات المؤدية إليها كالانتخابات والتصويت وإطلاق الحريات وممارسات أخرى يمكن لها أن تساعد تلك المكونات ونخبها السياسية على تجاوز المرحلة الانتقالية واستيعاب التحول من النظام الشمولي الاستبدادي إلى النظام الديمقراطي التعددي .

إلا إننا ومن خلال قراءة لواقع العملية السياسية اليوم نكتشف بان حكومة الشراكة كما نسميها اليوم والتي بني على أساسها النظام السياسي في العراق لم تنجح في إنضاج الفكر الديمقراطي لدى المجتمع السياسي ونخبه وبدل أن نشهد تقدما باتجاه الوعي الديمقراطي نجد أن بعض القوى السياسية أصبحت تتمسك بمفاهيم المحاصصة الطائفية لتكون في موضع الدفاع عن وجودها داخل العملية السياسية أكثر من العمل على تحقيق مسؤوليتها في إدارة الدولة وحرصها على البناء الديمقراطي الذي يعتمد على ما تفرزه نتائج الانتخابات .

وبالرغم من كل ذلك نجد أن المحاصصة تتكرس وتتعمق في كل دورة انتخابية أكثر وأكثر وتعتمدها الحكومات في تشكيلها بالرغم من عدم رضا الجميع عن هذا النظام في تقسيم السلطات والسبب يعود برأينا الى عدم نضوج الفكر الديمقراطي لدى البعض ممن لا يتقبل تواجده خارج الحكومة ولا يستوعب ثقافة المعارضة كقيمة سياسية يمكن أن تعمل على مراقبة العملية السياسية والأداء الحكومي وخدمة المواطن من خلال جلوسه على مقاعد المعارضة ويصرُ على خدمة المواطن من خلال تواجده في المناصب والوزارات لنشهد صراعا سياسيا على السلطة تحت عباءة المحاصصة الطائفية والانتماءات الاثنية والقومية .

وحسب ما تقدم من حقائق ومعطيات نجد أن الحاجة ملحة للخروج من نفق المحاصصة ربما من خلال اللجوء الى انتخابات مبكرة او تشكيل حكومة أغلبية سياسية ، والضرورة العملية تقتضي قيام هذه الحكومة التي يجب أن يتم دعمها بتشريعات معينة كقانون الأحزاب وتعديلات في النظام الانتخابي الذي افرز الحكومات السابقة على ان لا تكون حكومة الأغلبية هذه مجرد محاولة لاحتواء أزمة سياسية تولدت جراء فشل حكومة الشراكة بل يجب ان تكون مخرجا باتجاه التخلص من التوافقية والمحاصصة التي تبعدنا عن بناء دولة المؤسسات ..

المجتمعات الإنسانية المختلفة.. وتحديات القرن الحادي والعشرين ...

عبد المجيد حسن شياع

في حزيران من سنة ((١٩٩٤)) ، نشر المؤرخ البريطاني المشهور ((بول كندي)) كتابا بعنوان ((الاستعداد للقرن الحادي والعشرين))، تحدث فيه عن التحديات التي ستواجه المجتمعات الإنسانية في القرن الحادي والعشرين، كالانفجار السكاني، وثورة التكنولوجيا الكبيرة، والمال، والزراعة والمياه والتعليم، وثورة التكنولوجيا الحيوية، والروبوتات ودورها في الثورة الصناعية الجديدة، وعن تأثيرات القوة الصناعية لليابان، والصين والهند والبرازيل ، والثورة الصناعية الآسيوية، وعن الرابحين والخاسرين من التطورات العالمية، وعن تخلف الأنظمة السياسية عن استيعاب التقدم الصناعي . ولم يخصص ((كندي)) للحديث عن العالم الإسلامي والمسلمين سوى أربع صفحات من كتابه ، يصف فيها مستقبل المسلمين ومجتمعاتهم بتشاؤم كبير ، استنادا إلى مرارة واقعهم المتخلف الذي يتخبطون فيه منذ قرون ، من دون أي بارقة أمل في خلاص قريب ،

ويقول: ((إنه بعيدا عن الاستعداد للقرن الحادي والعشرين ، يبدو إن معظم العالمين العربي والإسلامي يجد صعوبة في التعامل حتى مع القرن التاسع عشر بمبادئه العلمانية وديمقراطياته وأسئلته الفكرية)) ، ويذهب إلى أبعد من ذلك عندما يعتبر هذين العالمين مثالا عالميا وتاريخيا لأي مجتمع لا يستجيب للتطور العلمي الحديث في شتى مجالاته .

و((كندي)) ليس الوحيد الذي يقول هذا الرأي المستند إلى الإحصاءات والبحوث العلمية المعاصرة ، بل إن جميع الباحثين والمؤرخين في العالم ككل مجمعون على هذا الوصف ، ومنهم المؤرخ ((برنارد لويس)) في كتابه الأخير ((أين الخطأ ؟)) والذي نشر في سنة ((٢٠٠٢)) ، وكذلك المؤرخ ((أرنولد توينبي)) في محاضراته التي ألقاها بمصر في ستينيات القرن الماضي ، وتساءل فيها مرارا عن سبب تخلف العرب والمسلمين ، بالرغم من التحديات الكثيرة التي يواجهونها وإمكاناتهم المادية والبشرية الكبيرة ، كما إن التقارير التي تنشرها الوكالات المتخصصة في الأمم المتحدة ، كتقارير التنمية الإنسانية العربية السنوية مثلا تساند هذا الرأي .

وأمام هذا الوضع المأساوي والتشاؤمي ، فلا بد لأي مسلم أن يطرح على نفسه هذا السؤال الجوهري والملح وهو : ((هل تكمن علة التخلف في قصور عقول المسلمين عن إدراك المعاني الحقيقية والعميقة لتعاليم الإسلام أم إنها تكمن في القصور الذاتي لتعاليم الإسلام عن مواكبة التطور البشري والتكيف مع حقائقه العلمية ، وتطلعات الإنسان المستقبلية ، والمساهمة في تقديم الحلول المجدية لمشكلاته المادية والروحية والذهنية في زمن يخضع فيه المجتمع الإنساني كله لتبدلات عميقة وسريعة في مفاهيمه وأخلاقياته وعاداته وتقاليده وثقافته وأسس تفكيره؟

وهذا السؤال ليس بجدي ، إلا إن الإجابة عليه تزداد أهمية يوما بعد يوم ، نظرا للمكانة الاستراتيجية التي يحتلها العالم الإسلامي في الجغرافيا البشرية والاقتصادية المعاصرة من ناحية ، وإلى اعتقاد المسلمين الراسخ بتعاليم الإسلام كمنهج أبدي للحياة وللمجتمع ككل، كما يتوقع الخبراء والمحللون من ناحية ثانية.

ويشكل المسلمون اليوم كتلة بشرية ضخمة جدا يقدر تعدادها بأكثر من مليار ونصف المليار شخص ، أي نحو ربع سكان العالم تقريبا ، يعيشون في بقاع شاسعة من الأرض ، ويحوي بعضها ثروات طبيعية هائلة تشكل عصب الحياة وتطور الإنسان المعاصر ، ومع كل ذلك فما زالوا إحدى الخلايا الميتة في حركة التطور الحضاري المعاصر ، وهذا مادفع بعض الإصلاحيين المسلمين في القرنين التاسع عشر والعشرين إلى محاولة تجديد مفاهيم الإسلام للتكيف مع متطلبات العصر ، ظنا منهم إنهم يستطيعون بذلك إنقاذ المجتمعات الإنسانية من سباتها وتخلفها اللذين طال أمدهما ، لكن جهودهم لم تعط الآمال المرجوة كما يؤكد الواقع المرير لهذه المجتمعات.

ولقد أكدت جميع الأبحاث الرصينة والمحايدة إن الأمية والجهل والفقر والبطالة وزيادة المواليد وتصحر الأراضي وبدائية الإنتاج وسوء استغلال الموارد الطبيعية والكبت السياسي والاجتماعي ومصادرة الحريات وتخلف وسائل المعرفة والمواصلات بمختلف أنواعها والتي تشكو منها المجتمعات الإسلامية ، وكلها مشكلات من صنع الإنسان وحده وليست مصدرا دينيا.

لذلك فإن أول وأهم خصائص الحياة الغربية المعاصرة هي حب الاستطلاع والعلم ، حيث يقول ((أرنولد توينبي)) ، وهو أحد أعظم المؤرخين المعاصرين في إحدى محاضراته: ((إن حب الاستطلاع في الغرب اتجه منذ القرن السابع عشر إلى مجال البحث العلمي الموضوعي المنزه ، وقد أدى قيام هذه الأبحاث على أسس منهجية دقيقة إلى ظهور نتائج علمية مثيرة تفوق حد الخيال ولم يحلم بها الباحثون الأوائل)) .

ويعتبر هذا الاستطلاع العلمي المنزه عن الغرب السبب الرئيسي لعلو مكانة الغرب في العالم الحديث ، وقد أدى تطبيق تلك الأبحاث العلمية في الصناعة إلى نشوء التكنولوجيا الحديثة والإنتاج الآلي ، وأثبت هذا الإنتاج منذ بدايته في نهاية القرن الثامن عشر وحتى الآن بأنه وسيلة مذهلة لتطوير الحياة المادية للمجتمعات البشرية المختلفة ونشر الرفاهية في ربوعها ، وقد استطاع الغربيون بعد جهود علمية كثيفة استئصال الفقر والأمية وكذلك الكثير من الأمراض الفتاكة من مجتمعاتهم ، وتحقيق القدر الكبير من التنسيق بين الحرية والنظام فيها ، فكانت كل هذه المنجزات الرائعة ، كما يقول ((برتراند راسل)) في كتابه ((أمال جديدة في عالم متغير))، فتحا جديدا في تاريخ البشرية جمعاء ، وأمثلة حية لمعالجة مشكلات التخلف الإنساني والقضاء على أسبابه.

وقد كان معظم العلماء والمفكرين الغربيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يعتقدون بأن التقدم العلمي كفيل بحل المشكلات المزمنة التي يواجهها البشر في المجالين المادي والروحي ، وقادر على تحويل الأرض إلى نعيم كالذي وعد الله عز وجل عباده المؤمنين به ، لكن هذه الآمال بدأت بالتراجع عندما أخذت الثورة الصناعية تشد الناس إلى التفكير المادي في الحياة، وأصبحت الحياة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تستمد من الواقع بدلا من العقل، ونتج عن ذلك كله انحدار تام نحو المادية والضياع الروحي للإنسانية .

ويقول ((ألبرت شفيتزر)) ، وهو طبيب وعالم موسيقي ، وفيلسوف ألماني شهير، وحاصل على جائزة نوبل للسلام في سنة ((((١٩٥٢)))) في كتابه ((حياتي وفكري)): ((يجب الاعتراف أولا بأن فساد الروح هو السبب الرئيسي لتدهور الحضارة الغربية، وإن الحضارة الغربية أصبحت عديمة القدرة في يومنا هذا ، لأن المفهوم الأيديولوجي الذي تمتد فيه جذورنا قد اختفى شيئا فشيئا، وإن هذه الحضارة تعيش الآن في المظاهر التافهة، ولابد أن ينتهي بها المسير إلى كارثة لأنها انقطعت عن القانون الجوهري الوحيد الذي يغذيها، وهو قانون الأخلاق، ومهما تكون الأهمية التي نعطيها للعلوم والقوى المادية، فيبدو واضحا إن الإنسانية التي تتبع أهدافا أخلاقية تستطيع وحدها أن تستفيد إلى حد بعيد من التقدم المادي، والسيطرة في الوقت نفسه على مايرافق هذا التقدم من الأخطار، ونحن نرى إن هذا الجيل الذي آمن بالتقدم العلمي يحدث آلبا، والذي فكر بإمكانية الاستغناء عن المثل الأخلاقية لهذا التقدم، والاقتصار على العلم والقوة وحدهما، قد أعطى البرهان من خلال الوضع الذي يعيشه اليوم على إنه كان مخدوعا ، فالتقدم المادي وحده لايعد الجوهر الخالص لهذه الحضارة ، لأنه يحمل للعالم في ثناياه بذور الخير والشر على حد سواء، ...، وإنني متخاصم مع روح هذا العصر لأنه شديد الاحتقار للفكر ، لدرجة قادتنا إلى الشك في قدرة هذا الفكر على الرد على الأسئلة المتعلقة بالكون وعلاقتنا به ، وفي إعطاء معنى ومحتوى خاص لوجودنا ، ومن الغريب أن يكون جيلنا ، والذي يبدو عظيما في اكتشافاته وإنجازاته العلمية المختلفة ، لم يستطع تجنب الانزلاق إلى هذا الدرك المخيف في المجال الروحي ، وإنني أشعر في أعماق ضميري بأننا نسير في طريق سيقودنا إلى عصور وسطى من طراز جديد)) .

ويؤكد المؤرخ ((أرنولد توينبي)) في إحدى محاضراته الناحية التي أشار إليها ((ألبرت شفيتزر)) فيقول: ((إن عجز الإنسان عن التأمل الروحي الباطني يتضمن إهدارا لإنسانيته لا يقل عن ذلك الذي يتضمنه عجزه عن النشاط العملي، ولكي يكون المرء إنسانا بحق ، عليه أن يجمع ويوفق بين هذين النوعين من السلوك الظاهري والباطني، فالتأمل والصلاة ليسا بأقل أهمية من النشاط العملي الخارجي من حيث إنهما عنصران ضروريان لا غنى عنهما في حياة الإنسان، ولقد كان الغرب يمارس هذا الوجه الباطني من النشاط قبل أن يبدأ المرحلة الحديثة من تاريخه مثلما تمارسه المجتمعات غير الغربية في وقتنا الحالي، وعلى ذلك أود أن أقول لغير الغربيين: كونوا عمليين بالمعنى الغربي إذا شئتم، ولكن لا تمضوا في اقتباسكم لهذا الطابع العملي إلى حد التطرف ، ولا تأخذوا بهذا الحد الذي يشل قدرتكم الحالية على التأمل ، إذ إن أي شخص لكي يكون آدميا بالمعنى الكامل ، ينبغي عليه أن يكون تأمليا وعمليا في آن واحد ، فلن يكتمل أي إنسان إذا قضى على واحد من هذين العنصرين الأساسيين في تركيب الشخصية الإنسانية)) .

إن وجهة نظر الإسلام حول سيادة الإنسان على الأرض وتطوره عليها تتفق مع وجهة نظر الحضارة الغربية ، لكن الفرق بين النظريتين يتركز حول نوعية الرقي الإنساني ونتائجه ، فالغرب الحديث يعتقد بإمكانية التطور الروحي للبشرية عن طريق الرقي العملي وتطور التفكير العلمي ، وهذا ما ثبت خطأه باعتراف المفكرين الغربيين أنفسهم ، أما وجهة النظر الإسلامية فتقول بأن الناحية الروحية صفة متكاملة في أعماق الطبيعة البشرية ، وهذه الطبيعة لا تخضع لعملية التبدل الارتقائي كما يقول الغربيون ، لأنها ليست كمية عضوية قابلة للقياس الكمي والكيفي ، كما هو الشأن بالنسبة للعناصر المادية ، والخطأ الرئيسي في النظرية الغربية كما يقول ((محمد أسد)) في كتابه ((الإسلام على مفترق الطرق))، هو اعتبار الترقي في الرفاهية والمعارف المادية أساسا للترقي الروحي والأخلاقي للإنسانية جمعاء ، وتطبيق مبادئ العلوم الطبيعية على الحقائق الروحية ، ومصدر هذا الخطأ هو إنكار وجود نفس مفارقة للمادة ومنفصلة عنها ، بينما الإنسان يعتبر وجود النفس حقيقة إلهية لا تقبل النقاش ، وفي الوقت الذي يؤكد فيه الإسلام إمكانية الرقي المادي للإنسانية كلها ، ويحث عليه ، نجده ينكر إمكانية تطورها الروحي عن طريق الرقي المادي الاجتماعي ، ويعتبر إن العنصر الفعال في الرقي الروحي مقصور على كل إنسان بمفرده ، لأننا لا نستطيع أن نتقدم نحو الكمال الروحي كمجموعة ، بل على كل فرد أن يكدح بنفسه إلى هذا الهدف .

إن مفهوما كهذا لا يمكن أن يقوم إلا على أساس اعتقاد إيجابي بوجود النفس الإنسانية ، وبوجود هدف سامي للحياة ، وبذلك يكون موقف الإسلام من العلم والتكنولوجيا موقفا إيجابيا من حيث إنهما يطوران الوسائل المادية التي تؤمن السعادة الأرضية للإنسان ، ويكون موقفه سلبيا عندما تخرج هذه التكنولوجيا وذلك العلم عن الرقابة الأخلاقية للمجتمع ، ويصبح مصدرا للكوارث والشرور ، كما هو الحال في اختراع أسلحة الإبادة الجماعية ، فالإسلام إذا يكرم العلم ويحث عليه ولا يرتفع المسلم بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم ، والحضارة الإسلامية لم تأخذ بعدها العالمي والإنساني إلا من خلال إنجازاتها العلمية ودعوتها إلى العدالة الاجتماعية والأخوة والمساواة بين جميع البشر ، وازدهار حرية الفرد فيها ، وتفاعل هذا الفكر مع أفكار وعلوم الحضارات الأخرى التي عاصرته أو سبقته .

أما ثاني خصائص الحياة الغربية المعاصرة فهي النزعة الفردية ، حيث يقول ((أرنولد توينبي)) : ((إن هذه النزعة لعبت دورا مهما في تطور جميع المجتمعات البشرية ، إذ إن لكل إنسان مواهبه الخاصة وشخصيته المميزة ، والإبداع البشري هو دائما نتيجة لجهد فردي معين ، وهذه القدرة الفردية الخلاقة هي رأس المال الوحيد الذي يمتلكه الإنسان ، والمجتمعات التي أعطت الفرد الفرص الضرورية للقيام بعمل منتج هي المجتمعات الأكثر تقدما وتطورا ، وعندما تقيد هذه الفرص بمطالب سياسية ، فمعنى ذلك شلل القدرة الإبداعية للأفراد ، والإنسان الذي يمتلك مواهب شخصية ممتازة ، يستطيع استخدام تلك المواهب بطريقة أخلاقية جيدة ، كما يستطيع استخدامها للإضرار بمصالح الآخرين ، وهذا يعني إن النزعة الفردية يمكنها أن تؤدي إلى نتائج ضارة بالمجتمع إذا لم توضع تحت السيطرة الأخلاقية)) .

أما في الإسلام ، فإن هذه النزعة تخضع بدورها للفلسفة القرآنية القائلة بأن كل أعمال البشر يجب أن تهدف إلى رضوان الله عز وجل باعتباره مصدر الحق المطلق والخير المطلق والجمال المطلق ، فالإسلام لا ينكر الدور الذي تلعبه النزعة الفردية في تطور الحضارات ، وهو نفسه لم ينشأ وينتشر إلا بفضل المواهب الفردية الفذة التي كان يتمتع بها الرسول محمد ((ص)) وأولياؤه وصحابته أجمعون ، ومن جاء بعدهم من العلماء والمشرعين ، ولكن الإسلام من ناحية أخرى لا يطلق العنان لهذه النزعة ، بل يخضعها لمراقبة إلهية واجتماعية صارمة ، فالسلوك الإنساني في الإسلام خاضع لموازين دقيقة جدا يوزن بها حفاظا على العلاقات الخيرة بين الناس .

إن الفضائل المثلى التي يحض عليها القرآن الكريم والرسول ((ص)) هي التي ترفع الإنسان إلى الكمال الأعلى في هذا العالم والسعادة الروحية في العالم الآخر، فالصبر والأخوة والأمانة والعدل والإحسان والأمل والحلم والعفو كلها من الصفات المثلى التي أوصى الله عز وجل الإنسان من أجل بناء مجتمع فاضل لا أنانية فيه ولا استعباد ، بل فيه عدل ومساواة وأخوة بين الناس ، وإن مثل هذه الصفات تطهر روح الإنسان وتساعدها على السمو تدريجيا نحو الله عز وجل ، فالشريعة الإسلامية ليست وقفا على الشعائر والطقوس المختلفة ، بل تخضع لها الحياة الاجتماعية والشخصية كلها ، لأنها تهدف إلى ربط كل عمل من أعمال الفرد بواجباته الدينية .

إن آخر خصائص الحياة الغربية المعاصرة هي النزعة العملية ، حيث يفخر الغربيون كما يقول ((أرنولد توينبي)) في محاضرته: ((أسلوب الحياة الغربية في الميزان)) ، ((بأنهم قوم نشيطون وعمليون ، يخططون وينفذون أمورهم بسرعة وكفاءة ، ولاشك في إن هذه الصفات تعد مصدرا من مصادر العمران والرقي في المجتمع البشري ، غير إنها قد تتجه أحيانا إلى غايات غير مرغوب فيها أخلاقيا ، وتكون لها نتائج عكسية مضرة بالمجتمع ، إذ إنها قد تصرف الإنسان عن ممارسة أوجه نشاطه الروحي كالصلاة والتأمل ، وهي نشاطات كانت في الماضي تؤلف جزءا من حياة المجتمعات الغربية ، ولكنها اليوم أصبحت شبه معدومة ، إذ حلت عبادة الحياة ، والرفاهية والمال والقوة مكان عبادة الله عز وجل ، فقد تخلى الإنسان عن شخصيته الروحية وفضائله الأخلاقية التي كان يتصف بها قبل بداية المرحلة الحديثة من تاريخه الطويل ، وأعلن خضوعه لمقتضيات الحياة المادية وقوانينها ، مما شل قدرته على التأمل الروحي بعد أن أسقط الله عز وجل من دائرة حياته العملية)) .

لقد كانت النزعة العملية هذه أحد الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية وازدهارها ، فكان النبي ((ص)) وأولياؤه وصحابته أجمعون والمسلمون الأوائل يسيرون وفق هذه النزعة في حياتهم ، والتي كانت مرتبطة دائما بالعنصر الأخلاقي والروحي معا ، وخير تعبير عن هذا الاتجاه هو قول سيدنا ومولانا علي بن أبي طالب (ع) : ((اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)) ، وقوله أيضا : ((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا من ترك آخرته لدنياه بل خيركم من جمع بينهما)) ، فحياة المسلم يجب أن تقوم على التعاون التام والمطلق بين ذاته الروحية وذاته المادية ، لأن الحياة عبارة عن وحدة مركبة تضم أعمق المظاهر الخلقية والعلمية والشخصية والاجتماعية ، والإسلام عندما يدل أتباعه على طريق الفضيلة من خلال القرآن ، لا يترك حاجات الطبيعة البشرية جانبا ، وعندما يقدم إليهم سلوكا أخلاقيا يفزعون إليه في ساعات يأسهم ، فإنه لا يذهب إلى خارج نطاق الواقع ولا يعطيهم مثلا أعلى في الفضيلة لا يستطيعون احتماله ، بل يرسم لهم قواعد سليمة في الحياة تثبت عند وضعها موضع التنفيذ إنها قواعد عملية أصيلة .

إن هذه هي أهم الصفات التي تتميز بها الحياة الغربية المعاصرة كما يراها بعض علماء الفكر الغربي ، ومع إنهم لا يشيرون إلى صفات أخرى مثل الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة وغيرها ، فإن مفهوم الغرب لهذه المواضيع يختلف اختلافا عميقا بين العقيدتين الرأسمالية والماركسية ، واللتين نبعتا منه نتيجة لتطورات اقتصادية واجتماعية معينة ، ومع إنهما يتناقضان معا في الكثير من القضايا ، إلا إنهما يتفقان في النهاية على أمر مهم ، وهو النظرة المادية للحياة الإنسانية ، وهذا ما يتناقض مع مبادئ الأديان السماوية جميعها . ولذلك فإن نظرة الإسلام إلى الإنسان والحياة معا إذا فهمت فهما صحيحا ، سوف تؤلف أيديولوجية مثالية ومتكاملة تحاكي الطبيعة الإنسانية في أعمق معانيها المادية والروحية .

ومن الأخطاء الفادحة التي يقع فيها بعض الباحثين عند تصديهم لهذا الموضوع تطبيق مصطلحات الحضارة الغربية على مفاهيم الإسلام ونظمه ، فالإسلام له نظامه الاجتماعي الخاص به ، والذي يختلف في منطلقاته وأهدافه عن منطلقات وأهداف الأيديولوجيات السائدة في الغرب ، ولا يمكن دراسة ذلك النظام إلا في حدود مفاهيمه ومصطلحاته الخاصة ، وأي خروج على هذا المبدأ سوف يؤدي إلى تشويه موقف الشرع الإسلامي من الكثير من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تشغل فكر الإنسان المعاصر الآن ، فالحضارة الإسلامية حضارة دينية في أساسها ، ولا يمكن فهمها فهما صحيحا إلا إذا تبين الدور الذي يقوم به الدين الآن في الحضارة الإنسانية.

إن مستقبل الإسلام والمسلمين في عالمنا المعاصر وفي المستقبل متوقف على كيفية تطبيق القاعدة الدقيقة على الحياة المعاصرة من قبل فقهاء مسلمين متنورين بالفكر العلمي الحديث ومناهجه الحديثة ، ومنفتحين على مشكلات هذا العصر وقضاياه المختلفة ، وهم فقهاء يقرؤون الإسلام بعقول وقلوب وعيون مفتوحة وبعيدة عن الجمود والتحجر وعصور الانحطاط التي تثقل على الإسلام والمسلمين .

إن صراع الإنسان الطويل من أجل التقدم إنما يهدف إلى تحقيق تلك المثل التي تكلم عنها القرآن الكريم وألح عليها كقواعد للسلوك البشري ، وعندما يبطل اعتبار هذه المثل من أساسيات التفكير الإنساني والحياة الإنسانية ، فسوف يصبح الإسلام تراثا من الماضي وعبئا ثقيلا على أتباعه ، فالقرآن الكريم يحوي صورة رائعة عن ذلك الحوار الأزلي بين الله عز وجل والإنسان ، وبين الإنسان والكون ومخلوقاته ، وهو بذلك يربط الإنسان مع الله عز وجل والكون برباط روحي وثيق يجعل لوجوده معنى مهما تحت الإشراف الإلهي ، ثم إن الإنسان في المفهوم القرآني ليس مخلوقا ماديا تطور عبر ملايين السنين من تركيب مادي خاص إلى ما هو عليه اليوم ، وإنما هو مخلوق إلهي وجد لغاية معينة وينتهي إلى غاية معينة أيضا ، وهو خليفة الله عز وجل على الأرض ، ولهذا السبب تتشابك وتتداخل في الإسلام خيوط الوحي الإلهي مع العقل البشري بصورة لا تقبل الانفصال أبدا ، لأن الغاية الأساسية للإسلام هي تحقيق اقتران ناجح بين المادة والروح ، وبذلك تقوم دولة الإنسان الكامل .